الخطاب القرآني

دراسة في العلاقة بين النص والسياق

-مثل من سورة البقرة-

حقـوق الطبـع محفوظـة

الطبعة الأولى
1429 هـ - 2008 م

لا يسمح بطباعة هذا الكتاب أو تصويره أو ترجمته إلا بعد أخذ الإذن الخطي المسبق من الناشر والمؤلف.

Copyright ©
All rights reserved

الخطاب القرآني

دراسة في العلاقة بين النص والسياق

"مثل من سورة البقرة"

د. خلود العموش

الجامعة الهاشمية

٢٠٠٨

جدارا للكتاب العالمي
عمان- الأردن

عالم الكتب الحديث
إربد- الأردن

الإهداء

إلى . .

أستاذي . .

الدكتور نهاد الموسى . .

تقـــديراً وعرفانـــــاً .

خـلود

تصدير

بقلم أ. د. نهاد الموسى
أستاذ العربية واللسانيات العربية
في كلية الآداب من الجامعة الأردنية

(١)

يحكي الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد أن أبا عبيدة قال: أرسل إليّ الفضل بن الربيع إلى البصرة في الخروج إليه سنة ثمان وثمانين ومئة، فقدمت عليه، وكنت أُخْبَر عن تجبّره، فأُذن لي فدخلت وهو في مجلس له طويل عريض فيه بساط واحد قد ملأه وفي صدره فُرُش عالية لا يرتقى إليها إلا على كرسيّ وهو جالس عليها، فسلّمت عليه بالوزارة، فَرَدّ وضحك إليّ واستدناني حتى جلست معه على فرشه، ثم سألني وألطفني وباسطني. وقال: أنشدني، فأنشدته من عيون أشعار أحفظها جاهلية. فقال لي: قد عرفت أكثر هذه، وأريد مِنْ مُلَح الشعر فأنشدته فطرب وضحك وزاد نشاطه. ثم دخل رجل في زيّ الكتّاب له هيئة فأجلسه إلى جانبي، وقال له: أتعرف هذا؟ قال: لا. قال: هذا أبو عبيدة علاّمة أهل البصرة أقدمناه لنستفيد من علمه فدعا له الرجل وقرّظه لفعله هذا. وقال لي: إنّي كنت إليك مشتاقاً، وقد كنت سئلت عن مسألة أفتأذن لي أن أُعرِّفك إياها؟ قلت: هات. قال: قال الله تعالى: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ وإنما يقع الوعد والإيعاد بما قد عُرِف مثله وهذا لم يعرف. فقلت: إنّما كَلّم الله العرب على قدر كلامهم، أما سمعت قول امرئ القيس:

أيقتلني والمَشْرَفيّ مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أغوال

وهم لم يروا الغول قطّ، ولكنّه لما كان أمر الغول يَهُولهم أُوعِدوا به فاستحسن الفضل ذلك واستحسنه السائل. واعتقدت من ذلك اليوم أن أضع كتاباً في القرآن لمثل هذا وأشباهه ولما يُحتاج إليه من علمه فلمّا رجعت إلى البصرة عملت كتابي الذي سميته المَجَاز...

❖❖❖

(٢)

قام مجاز القرآن لأبي عبيدة، إذن، على ملحظ منهجي مؤدّاه أن الخطاب القرآني نزل على سنن العرب في كلامها، وهكذا أصبح كلام العرب وسننهم فيه مدخلاً إلى "قراءة" النصّ القرآني، وسبيل الناس إلى تلقّي الخطاب الذي أنزله ربّ الناس.

ولم يكن منهج أبي عبيدة في مجاز القرآن بدعاً؛ فإنّه يجري فيه على نهج ابن عباس في إجاباته عن سؤالات نافع بن الأزرق.

ولعلّ إنكار الأصمعيّ لعمل أبي عبيدة في المجاز إذ اعتدّه تفسيراً بالرأي إنّما أملته المنافسة بينهما حسب؛ ذلك أن الملحظ المنهجي الذي أقام أبو عبيدة عليه كتابه هو الذي يفسّر لنا كيف كانت العربية بنظمها ونظامها لسان الجاهلية كما كانت العربية نفسها بنظمها ونظامها وسنن العرب في كلامها لسان رسالة الإسلام.

❖❖❖

(٣)

فإذا مضينا مع دلالات هذا الملحظ أيقنّا كيف تكون اللغة في إمكاناتها المركبّة في العقل الإنساني بالفطرة تنبئ عن طبيعة كونيّة؛ إذ تستوعب الجاهلي والإسلاميّ، بل إنّ هذا الملحظ ينسجم وبعض تأويل علماء العربية لقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾، حين ذهبوا إلى أنّ مؤدّى ذلك ما ركّب الله في الإنسان من الفطرة التي تمكّنه من إنشاء اللغة على هذا النحو المتجدّد الخلاّق كما انتهى إليه أصحاب النظرية المعرفية العقلية، وذلك شأن الإنسان في قدرته على "برمجة" كُلّ لغة ينشأ في محيطها؛ ذلك أن العقل الإنساني مزوّد بهذه القدرة الفطرية المركبّة فيه التي تمكّنه من اكتساب أيّة لغة. ويكون هذا كلّه دليلاً على المشترك الإنساني بما تنبئ عنه هذه الفطرة اللغوية، ومسوّغاً حاسماً للانتقال من القول بكونيّة اللغة إلى القول بعالميّة الرسالة التي حملها الخطاب القرآني.

❖❖❖

(٤)

وكان نزول القرآن بلسان عربيّ مبين هو الذي هيّأ للعربيّة أن تصبح لغة معتمدة، واستتبع ذلك وصفها وتقعيدها. ونشأت علوم العرب في ظلال القرآن أوّل الأمر لتكون

دليلاً للعرب وغير العرب إلى تحقيق أدائه أداءً سليماً وتصحيح قراءته والدلالة على وجود إعجازه.

ثم نجمت في ظلاله علوم شتى هي علوم القرآن عند الأوائل. ولم يظفر كتاب في تاريخ الثقافة الإنسانية بمثل ما استلهمه أهل النظر من تقليب البحث على وجوهه في استكناه أبعاد النصّ القرآنيّ. ولست أصادر هنا بشيء على ما جاءت به الدكتورة خلود في هذا السبيل، فقد عرضته عرضاً مستفيضاً.

❖❖❖

(٥)

وإنما أتوقف هنا، لمحاً، إلى ما كان من توقّف الأوائل إلى بيان أسباب النزول وبيان المكّي والمدنيّ... إلخ ما أشبه ذلك. وإنما أتوقّف إلى مثل هذا لأنّني أراه يتجاوز لديهم ما يكون من تناول الخطاب القرآني في ذاته إلى ما اكتنف الخطاب من "شروط" خارجيّة. وهو ملحظ يلتقي مع ما طوّرته مناهج لسانية حادثة في تحليل الخطاب اللساني وخاصّة ما طوّرته "الوظيفيّة" و "البراغماتية" ونظرية "السياق" و "اللسانيات الاجتماعية" من مقولات كليّة تقوم على أن هناك علاقة وثيقة بين الخطاب وشروطه الخارجية في المكان والزمان والإنسان على اختلافها. وهو اختلاف يمثّل إحدى آيات الله مصدر الخطاب القرآني.

وإذن فقد وقف علماء القرآن على ملحظ آخر يتمثّل في التفطّن إلى العلاقة بين الخطاب القرآني وشروط نزوله. ويفضي بنا تأويلنا الأوّل لتمثيل اللسان العربي الخاصّ للكوني اللساني المشترك إلى تأويل مسوّغ تماماً لتمثيل ما بين الخطاب القرآني وشرطه العربي الأوّل - في تعالقه المنسجم مع المناسبة المباشرة في أسباب النزول وتعالقه المنسجم مع تباين المكان ومنطوياته في المكّي والمدنيّ...إلخ، وما بين الخطاب القرآني واستيعابه للشروط الإنسانية للعالمين والناس كافة في كلّ زمان ومكان.

❖❖❖

(٦)

توسّل القدماء إلى قراءة النصّ القرآني بما تهيّأ لهم من أدوات النظر فأصابوا كثيراً من وجوه الكشف عمّا ينطوي عليه الخطاب القرآني. ثم نجم في هذا الزمان جيل من

الباحثين في العربية خاصّة شكّل تياراً عريضاً يمثّل امتداداً لجهود الأوائل إذ يقوم منهجهم على المزاوجة بين النظر في الخطاب القرآني تديّناً وابتغاء البركة (أن يكونوا بسبب من النصّ المقدّس وسدانته) واسترفاد مناهج في النظر حادثة توافق بعض ما تفطّن إليه الأوائل وترفده بأنظار إضافية مبصرة. وإنما يستعير هذا الجيل تلك المناهج في مقولاتها الكلية لما يرون من فوائدها وما تنطوي عليه من بصائر تنأى عن التحيّز والأغراض المبيّتة إذ هي تنتسب إلى "العلمي"؛ ذلك أن اللسانيات الحديثة بما فيها لسانيات النصّ ومناهج تحليل الخطاب والوظيفية التي جرّد "الآخر" مقولاتها المنهجية الكلية إنّما جاءت في سياق درس الظاهرة اللغوية والخطاب اللغوي درساً علميّاً. وذلك شأن مختلف عمّا كان دعا به الآخر في سياق المدّ الاستعماري الأوروبي إلى كتابة العربية بالحرف اللاتيني واتخاذ العامية بديلاً للفصحى... وهو حديث آخر مختلف ذو شجون.

❖❖❖

(٧)

وينطوي كتاب الدكتورة خلود أو ينفتح على عرض لمقولات تحليل الخطاب عند المحدثين، واستقراء مستفيض لقراءات الأوائل للخطاب القرآني، واستثمار مستنير لمقولات الفريقين في تفسير العلاقة بين الخطاب والسياق.

إنّه يتناول سورة البقرة نصّاً محفوظاً ثابتاً، ويستأنف قراءتها بمنظور يزاوج بين أنظار الأوائل ومقولات تحليل الخطاب فيجمع إلى بركة النصّ المقدّس اجتهاد باحثة مخلصة تتحلّى بإشراق العبارة والنفس الطويل. إنه كتاب يمثّل إضافة قيّمة إلى قراءات الأوائل وينتسب إلى أصالتهم المستنيرة إذ يغذوها برافد إضافيّ من أنظار علماء تحليل الخطاب في جرأة حذرة" ترى ما تريد وتتشبث بالثوابت وتصدر عن التزام اعتقادي راسخ" وتتحلى في الوقت نفسه بعقل مستنير ينشد الحكمة ضالّة المؤمن.

وكأن الدكتورة خلود تدفع قالة من قال: لم يترك الأوّل للآخر شيئاً وتذهب مع قول الآخر: كم ترك الأوّل للآخر.

نهاد الموسى

مقدّمـة

حظيت مصطلحات "النصّ" و "السّياق" و "الخطاب" بعناية خاصّة في الدراسات اللّغويّة المعاصرة، خاصّة مع نشوء ما يعرف بـ "بعلم النصّ" و "لسانيّات الخطاب"، وحاولت دراسات مختلفة أن تجيب عن سؤال العلاقة بين النصّ والسياق في الخطابات اللّغويّة المختلفة، وأثر الإطار الاجتماعي المحيط بالموقف الكلامي في صياغة الرسالة اللّغوية بكافّة جوانبها. كما دَرَست السياق اللّغوي للنصوص وعلاقته بالسياقات المقاميّة المشكّلة لها، وتجلّى ذلك في سلسلة كبيرة من البحوث أثراها علماء الدرس اللّغوي الحديث بدءاً بسوسير ومروراً بفيرث ومالينوفسكي وسابير وفان ديك وغيرهم.

وقد وَجَدْتُ في المباحث المختلفة التي تدرسها اللّسانيّات الاجتماعيّة ولسانيّات الخطاب ما يمكن أن يشكّل مدخلاً مناسباً وجديداً لقراءة الخطاب القرآني. وأساس هذا الاختيار أنّ الخطاب القرآني كلّه يشكّل رسالة لغويّة ناجحة وملائمة في سياق تنزّلها، ممّا جعل منه نصّاً يمتلك قدرات تواصليّة فائقة وجدنا آثارها تمتدّ في النفوس قديماً وحديثاً، ولعلّ حادثة إسلام عمر حين تليت عليه آيات من سورة (طه) يمكن أن تشكّل مثالاً واحداً فقط على هذه الوظيفة التواصليّة للنصّ القرآني. "تنزيلٌ من الرحمن الرحيم. كتاب فصّلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون..". وأمّا لماذا سورة (البقرة)؟ فذلك لأنّ خطابها متعلّق بمرحلة هامّة من مراحل الدعوة الإسلاميّة، وهي مرحلة ما بعد الهجرة وما رافقها من إنشاء دولة الإسلام الأولى، وارتباطها بمعطيات اجتماعيّة وثقافيّة واضحة، صحبتها مجموعة متغيرات على أكثر من صعيد، نستطيع أن نلمح معالمها داخل النصّ القرآني نفسه.

وتقع هذه الدراسة في مقدّمة وثلاثة فصول وخاتمة ؛ وأمّا الفصل الأول وعنوانه "في الإطار النظري للدراسة : في حدّ المصطلح، في حدود النظريّة" فقد اشتمل على أربعة مباحث ؛ خصّص المبحث الأوّل منها لتحديد المصطلحات الثلاثة التي تقوم على تفاعلها

معاً هذه الدراسة وهي: مصطلحات "النصّ" و "السّياق" و "الخطاب" من خلال الأنظار المختلفة قديماً وحديثاً، واستعرض المبحث الثاني وعنوانه "نظريّة العلاقة بين النصّ والسّياق في المساهمات الغربيّة" دور المساهمات الغربيّة في تشكيل نظرية العلاقة بين النصّ والسياق في ميادين الدرس اللغوي المختلفة، وخاصّة في ميدان علم النصّ، كما أوضحت الدراسة دور اللّسانيّات الاجتماعيّة ومشمولاتها في رفد هذه النظريّة وتشكيلها، وأبرزت المراحل المختلفة لتطوّر هذه النظريّة في ميادين: علم الدلالة، والتداوليّة، وفقه اللّغة، وميدان النقد والبلاغة الجديدة، والدراسات الأسلوبيّة. ثمّ أَبانت الدراسة عن ملامح هذه النظريّة في منظور اللّسانيّات الوصفيّة، ومنظور علم الخطاب، ثمّ في جهود "فان ديك" مؤسّس علم النصّ. أمّا المبحث الثالث وعنوانه "نظريّة العلاقة بين النصّ والسّياق في المساهمات العربيّة" فقد استُقْرِيَت فيه ملامح هذه النظريّة وجوانب اهتمامها؛ وذلك في ميادين: اللّغة والنحو، والنقد والبلاغة، وفي ميدان علوم القرآن وأصول الفقه وعلوم التفسير. وأمّا المبحث الرابع وعنوانه "تجارب في المنهج" فقد عرضنا فيه لتجربتين في المنهج من الدكتور إدوارد سعيد في دراسته: "النص، والنقد، والعالم" والدكتور نصر حامد أبو زيد في دراساته المختلفة حول النص، وخاصّة دراستيه: "النص: السلطة الحقيقية" و "مفهوم النص: دراسة في علوم القرآن".

وأمّا الفصل الثاني وعنوانه "الخطاب القرآني في سورة البقرة: دراسة في العلاقة بين النصّ والسياق في قراءات الأوائل" ويقع في أربعة مباحث أيضاً، فقد استفدت فيه من الأدوات المنهجيّة والنظرية التي خلصت إليها من خلال الإطار النظري للدراسة، وذلك في تشكيل صورة للخطاب القرآني في سورة البقرة في قراءات الأوائل. ويعرض المبحث الأوّل: قراءة في كتب علوم القرآن، ويعرض المبحث الثاني قراءة في كتب التفسير، والثالث قراءة في كتب أصول الفقه، وأمّا الرابع فيعرض قراءة في كتب إعراب القرآن.

وأمّا الفصل الثالث وعنوانه "الخطاب القرآني في سورة البقرة بين حدود النصّ وآفاق السياق" فيقدم محاولة قراءة جديدة لبعض مفردات نظرية العلاقة بين النصّ والسياق

في الخطاب القرآني في سورة البقرة، وهي: موضوع النص، وعنوان النص في ضوء نظرية السياق، والنصّ والمتلقي الأوّل، والنصّ والمخاطبون، وهي أمثلة فحسب، ولا تشكّل معالم الخطاب القرآني كلّه في سورة البقرة، وعرضت الخاتمة لنتائج الدراسة.

وقد اعتمدت هذه الدراسة على عدد وافر من المصادر القديمة والمراجع الحديثة العربيّة والأجنبيّة، وذلك في الميادين المتّصلة بهذه الدراسة. فمن المصادر العربيّة القديمة كتب النحو، خاصّة كتب إعراب القرآن، وكتب علوم اللّغة والمعاجم، وكتب النقد والبلاغة، وكتب أصول الفقه، وعلوم القرآن، وكتب تفسير القرآن خاصّة الكشّاف للزمخشري، وجامع البيان للطبري، والتفسير الكبير للفخر الرازي. ومن المراجع العربيّة الحديثة كتب النقد واللّغة، وتلك المؤلّفات المتّصلة بالنصّ اللّغوي وتحليله والمؤلّفات المتّصلة بقراءة الظواهر اللّغويّة في ضوء المناهج الحديثة، ومنها مؤلّفات الدكتور عبد السلام المسدّي، و د. صلاح فضل و د.نهاد الموسى، و د.محمد مفتاح و د. نصر حامد أبو زيد، و د. عبد الله الغذّامي و د.أحمد المتوكّل و د. تمّام حسّان و د.محمود السعران، ومحمد الخطّابي، وسعيد يقطين، والأزهر الزناد، وعبد القادر الفهري الفاسي وغيرهم.

وأما المراجع الأجنبية الحديثة، فقد استفادت الدراسة من المؤلفات المتصلة بعلم الدلالة وعلى رأسها مؤلفات جون لاينز، وعلم اللغة ومنها مؤلفات فيرث وبلومفيلد، وتلك البحوث المتصلة بالنص وتحليله، ولسانيات الخطاب وسوسيولوجيا النص، والدراسات الأسلوبية المختلفة. ومن هذه المؤلفات دراسات (ياكبسون) و (بارت) و (كريستيفا) و (إمبرتو إيكو) و (تودوروف) و (جيرار جينت) و (ديكرو) و (ريتشاردز) و (هدسن) و (غراهام هو) و (فان ديك) و (هاليداي ورقية حسن) و (براون ويول) و (بيوجراند ودرسلر) و (فاولر) و (نورثروب فراي) و (سابير) كما استفادت من معاجم علم اللغة النظري، ومعاجم اللسانيات، وكذلك من دراسة جاك بيرك (حينما كنت أعيد قراءة القرآن).

إنّ مقاربة النصّ القرآني محاولة لا تخلو من صعوبة، أبرزها سعة دائرة المعارف والمعلومات والبحوث والدراسات المتّصلة بهذه المقاربة قديماً وحديثاً؛ مما يجعل حجم العمل البحثي والاستقرائي كبيراً، كما إنّ تشكيل رؤية وقراءة جديدة للنصّ القرآني في ضوء مناهج النظر الحديثة يعدّ أمراً شائكاً يحتاج إلى حرص بالغ وحذر شديد في الاستنتاجات والأحكام، كما إن مناقشة وجهات النظر المطروحة في التجارب المنهجية حول الموضوع كان يحتاج إلى نوع من اللباقة الأكاديمية -إذا جاز التعبير - خاصّة فيما يتعلق بمقاربتي نصر حامد أبو زيد، وإدوارد سعيد، وما يمكن أن تحدثه هذه الرؤى في معيار المنهج الإسلامي من ملابسات، قد رأينا بعض مظاهرها في الساحة الأكاديمية المصرية بعد صدور كتاب أبي زيد "مفهوم النص". ومن جهة أخرى، فإن تناول المؤلّفات القديمة في مجال أصول الفقه والقراءات القرآنية، والناسخ والمنسوخ بما فيها من مصطلحات وآراء ووجوه كان يمثل صعوبة أخرى خلال البحث.

وقد حاولت هذه الدراسة أن تضيء بعض معالم التكيّف اللغوي أو (المناسبة) - في مصطلح الأوائل - في الخطاب القرآني مع معطيات السياق المختلفة مجتهدة أن تجمع بين البدء من النص وصولاً إلى السياق، والبدء مع السياق المحيط بالنص وصولاً إلى بنائه اللغوي، وضمن محورين متداخلين: محوّر آني؛ يركز في تحليله للظواهر على جملة علاقاتها وأبنيتها المتراكبة، وانتظامها في نسق متّصل في لحظة سياقية محدّدة. ومحور تعاقبي؛ يعنى بتطوّر الظواهر وصيرورة أوضاعها في فترات زمنيّة متعاقبة؛ فهي بذلك قد راوحت بين المنهجين: الوصفي والاجتماعي في استقراء العلاقة بين النصّ والسياق في الخطاب القرآني في سورة البقرة.

وإنّني أتأمّل أن أكون قد أضفت إلى الدراسات اللغوية التطبيقية جديداً، كما آمل أن يكون في هذه المقاربة للنص القرآني في ضوء بعض مناهج النظر الحديث خدمة

لكتاب الله عز وجل، وإبانة عن بعض معالم إعجازه في التعامل مع الإنسان والكون والحياة في الجانب اللغوي الاجتماعي، فهو منهج الحياة العظيم ودستورها القويم. وأتوجّه بخالص الشكر وجزيل العرفان لأستاذي الدكتور نهاد الموسى الذي كانت ملاحظاته خير عون لي في إنجاز هذا البحث، وأسأل الله عز وجل أن يبقيه ذخراً للعربيّة، بما جمعه من علم الأوائل وثاقب نظراتهم، ونظرات المحدثين واتّساع آفاقهم.

والحمد لله رب العالمين

خلود العموش

الفصل الأول

في الإطار النظري للدراسة

- **المبحث الأول: في حدّ المصطلح.**
  - تمهيد.
  - مصطلحات أوّليّة.
  - النصّ.
  - الخطاب.
  - السيّاق.
- **المبحث الثاني: العلاقة بين النصّ والسّياق في المساهمات الغربيّة**
  - تطوّر العلاقة بين النصّ والسّياق.
  - العلاقة بين النصّ والسّياق من منظور اللسانيات الوصفيّة.
  - العلاقة بين النصّ والسّياق لدى فان ديك.
  - العلاقة بين النصّ والسّياق من منظور علم تحليل الخطاب.
- **المبحث الثالث: العلاقة بين النصّ والسّياق في المساهمات العربيّة.**
  - في ميدان اللّغة والنحو.
  - في ميدان النقد والبلاغة.
  - في ميدان علوم القرآن، وأصول الفقه، وعلوم التفسير.
- **المبحث الرابع: تجارب في المنهج.**
  - إدوارد سعيد في "العالم والنصّ والناقد".
  - نصر حامد أبو زيد في "مفهوم النصّ" وكتب أخرى.

المبحث الأول
في حدّ المصطلح

تمهيد:

احتلّت مصطلحات (النصّ) و (السياق) و (الخطاب) موقعاً مركزيّاً في الأبحاث والدراسات التي تندرج في مجالات: (تحليل الخطاب) و (لسانيّات الخطاب) و (لسانيّات النصّ) و (نحو النصّ) وغيرها. حتى إنّنا لا نكاد نجد مؤلّفاً ينتمي إلى هذه المجالات يخلو من هذه المفاهيم الثلاثة أو من المفاهيم المرتبطة بها كالترابط والتعالق والانسجام والاتّساق وغيرها. وستكون هذه المصطلحات الثلاثة وتفاعلها معاً عماد هذه الدراسة، فالنصّ كما نتصوّره يتشكّل ضمن سياق أو سياقات معيّنة، ويحمل خطاباً أو خطابات متنوّعة ذات أنساق لغويّة مختلفة. وإنّ تبيّن العلاقة بين النصّ والسياق في لغة الخطاب القرآني يبدو عسيراً ما لم نقف على التحديد الدقيق لهذه المصطلحات وما يتّصل بها، وما لم نقف على المناهج المختلفة التي تناولت هذه العلاقة بالدرس والتحليل وفيما يلي بيان ذلك.

مصطلحات أوّليّة:

تعرّف الكلمة بأنّها "أصغر وحدة ذات معنى"[1]، وأمّا الوحدة الكلاميّة فهي "إشارات لغويّة ترسل من المرسل إلى المتسلّم عبر قناة ملائمة[2]. وقد تكون الوحدة الكلاميّة جملة أو عدّة جمل، وقد تكون قصيرة أو طويلة، وإذا أمكننا أن نحدّد للكلمة معنىً معجميّاً فإنّ تحديد معنى الوحدة الكلاميّة يتطلّب أن نأخذ بعين الاعتبار العوامل السياقيّة[3]؛ لأنّ هذه الوحدات تشتمل على مكوّنات لاكلاميّة كالتنغيم، والإشارة وغيرها.

---

(1) جون لاينز، اللّغة والمعنى والسياق، ص٤١.

(2) نفسه، ص٢٨.

(3) نفسه، ص٢٩.

ويفرّق الدارسون المحدثون بين نوعين من الجمل المكوّنة لهذه الوحدات هما:

١ - جمل النظام؛ ويقصد بها تلك الجمل التي يتمّ توليدها بوساطة القواعد النحويّة لنظام لغوي معيّن.

٢ - جمل النصّ، وتدلّ على المعنى المحسوس للجملة، وهو المعنى الذي تعدّ الجملة بموجبه جزءاً من خطاب، وقد تظهر هذه الجمل على شكل أجزاء نصوص[١].

٣ - مثال: لم أرَ دعاء. إنّ هذه الجملة جملة نظام، وإنّ نُطْقَها في بعض السياقات قد يؤدّي إلى إنتاج جملة نصّ، كما في قولنا: "لَم أَرَها" في السياق التالي:

هل رأيت دعاء؟ - لم أرَها. مالِك لم يَرَها أيضاً.

في هذا المثال، لا يمكننا تحديد محتوى القضيّة في جملة النصّ ما لم نكن قادرين على تحديد الجملة التي تمّ نطقها عند أداء العمل الكلامي الذي تكون (لَمْ أَرَها) نِتاجاً له في هذا السياق؛ ذلك أنّ جملة النص يمكن أن تحمل غموضاً لا حصر له عندما تكون خارج السياق فقولنا: (لم أرها) قد يعني: لم أر دعاء، أو لمْ أرَ باريس، أو لم أرَ أمّي..؟ فالجملة النصّية هي المنجزة فعلاً في مقام.

ويطلق وصف (الملفوظ) على الحديث أو الخطاب أحياناً؛ فهو مظهر كلامي لغوي يتألّف من تقطيعات وجمل، وهو أكبر من الجملة دلالةً، وهو جزءٌ من كلام وليس كلاماً كاملاً كما يرى هاريس[٢] (Harris). كما أنّه يمثّل موقفاً كلاميّا فيه متكلّم ومخاطَب وسياق داخلي (لغوي) وخارجي (مقام)، ولا يمكن فهم هذا الملفوظ بمعزل عن هذين السياقين وهو عملية اتّصال وإبلاغ متنوّعة المظاهر.[٣] وهذا يعني أن الملفوظ قد يكون مجرّد وحدة كلاميّة، أو قد يكون خطاباً.

---

(١) جون لاينز، اللغة والمعنى والسياق، ص٢١٧.

(٢) عدنان بن ذريل، اللّغة والدلالة، ص١٦.

(٣) صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص٦.

النص:

تتعدّد المعاني اللّغويّة لمادّة (ن، ص، ص) فهي تدلّ على الرفع بنوعية الحسّي والمجرّد[1]، وتدلّ كذلك على أقصى الشيء وغايته، ومنه نصّ الناقة أي استخرج أقصى سيرها[2]، وعلى الاستقصاء أي الإحاطة، وهو متّصل بالمعنى السابق، ومنه (نصّ الرجل نصّاً إذا سأله عن شيء حتّى يستقصي كلّ ما عنده)[3]. ومن دلالاتها كذلك الإظهار[4]، ولعلّه الجامع الذي ينتظم هذه الدلالات المتنوّعة كلّها. واستخدمت لفظة (النصّ) في علم الحديث بمعنى الإسناد والتوقيف والتعيين[5]. ويبدو أنّ الدلالة المركزيّة للكلمة وهي (الظهور والانكشاف) انتقلت إلى المعنى الاصطلاحي، وظلّت تتداول بهذه الدلالة في مجال العلوم الدينيّة كلّها تقريباً؛ فقد استخدم فقهاؤنا وعلماؤنا الأوائل كلمة النصّ بمعنى الكلام الثابت الواضح الذي لا يحتاج إلى تأويل.[6] واستخدموه أحياناً بمعنى المادّة المكتوبة كما نجده عند مكيّ بن أبي طالب في كتابه (الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه)[7]، وفي وقت متأخّر استعملت الكلمة للدلالة عل ما اقتبس من كلام الآخرين.

ويمثل مصطلح (النصّ) إشكاليّة معقّدة وكبيرة في النقد الحديث، وذلك بسبب تداخله مع عدد من المصطلحات الأخرى كالخطاب والأثر وغيرها. وقد حاول لسانيّان فرنسيّان هما "روبير لافون وفرانسواز مادري" (R. Lafont & F.C-Madray) أن يتتبّعا هذا المصطلح منذ نشأته، واستعمالاته في العصور المختلفة، فتوقفا عند سوسير،

---

(1) لسان العرب، مادة نصص.

(2) نفسه.

(3) نفسه.

(4) نفسه.

(5) الشريف الجرجاني، التعريفات، مادة (نصّ).

(6) نفسه، مادة (نصّ).

(7) مكّي بن أبي طالب القيسي، الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه، ص٦.

واستعرضا جهود سبتزر(Spitzer) وريفاتير(Riffaterre)، وكريستيفا(J. Kristeva)، وبارت (Ronald Barthes) وجاكبسون (Jakobson) خاصّة فيما يتعلق بحديثه عن علاقة النصّ بالتواصل، كما أوضحا تطوّر مفهوم هذا المصطلح لدى أولئك الدارسين[١]. وهي دراسة تكشف -لا ريب - أبعاداً مختلفة لتطوّر هذا المصطلح وآفاق رؤيته. كما يقدّم المعجم الموسوعي للسيميائيّة مجموعة من التعريفات الخاصّة بهذا المصطلح،[٢] ومنها تعريفات عامّة وشاملة، وبعضها الآخر تعريفات خاصّة بهذا الناقد أو ذاك، وكلّ هذه التعريفات في هذا المعجم أو في غيره من المؤلفات تظهر درجة التباين العالية في هذا المجال، ممّا يعكس توجهّات معرفيّة ونظريّة مختلفة.

وإذا ما حاولنا استخلاص المقوّمات الجوهريّة الأساسيّة لمصطلح النص لدى أولئك اللّسانيّين واللّغويّين عبر دراساتهم المختلفة، فإنّ المظهر الكتابي للنصّ يأتي أوّلاً، فالنصّ هو "كلّ خطاب مثبّت بواسطة الكتابة"[٣] كما يعبّر عنه بول ريكور (P.Ricoeur). وقد حاول بعض اللّسانيين تجلية مفهوم النصّ من خلال مظهره الكتابي، وذلك حين يأخذ النصّ شكل متوالية خطيّة ذات علاقة مرئيّة على الورق (graphic shape) كما في دراسات شورت وليتش[٤](M.H.Short & Leech, G.N).

إنّ تجلّي النصّ في مظهر كتابي يضعنا وجهاً لوجه أمام السمة اللّغويّة للنصّ، باعتبار الكتابة جزءاً من النظام اللغوي. وقد أفاض اللّساني "جون لوي هودبين" (J. L. Hoodbeen) في شرح هذه السمة وعلاقتها بالكتابة في بحوثه المختلفة[٥].

---

(١) سعيد يقطين، انفتاح النصّ الروائي، ص١٥.

(٢) Encyclopedic dictionary of Semiotics, General editor, Thomas sebeok Mouton, 1986, Tom "2" P. 1080.

(٣) صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النصّ، ص٢٩٧.

(٤) سعيد يقطين، انفتاح النصّ الروائي، ص١٢.

(٥) عبد الرحمن أبو علي، عناصر أوّليّة لمقاربة سيميولوجية، مجلّة العرب والفكر العالمي، بيروت، العدد الأوّل، شتاء عام ١٩٨٨، ص٧٤.

وأمّا المقوّم الثاني للنصّ فهو ظهور المعنى، فيطلق مصطلح (النصّ) على "ما به يظهر المعنى"[1]. ولظهور هذا المعنى آليّات متعدّدة تختلف باختلاف الدارسين. ولا ينظر للحجم في تسمية الملفوظ نصّاً؛ فكلّ ملفوظ مهما كان حجمه يمكن أن يعدّ نصّاً "إذا تركّب من سلسلة من الوحدات اللّغويّة ذات الوظيفة التواصليّة الواضحة"[2]. ومن هنا قد يكون النصّ جملة أو عدّة جمل، أو سلسلة متوالية من الجمل تقصر وتطول بحسب تلبيتها للسياق؛ ومن هذا المنطلق نفسه يعرّف هاليداي ورقيّة حسن (النصّ) بأنّه "وحدة لغويّة في طور الاستعمال"[3]. فهو وحدة دلاليّة تحكمها وظيفة تواصليّة وليس وحدة نحويّة كالجملة مثلاً.

والنصّ "سلسلة من العلامات المنتظمة في نسق من العلاقات تنتج معنىً كليّاً يحمل رسالة"[4]؛ ودراسة تسلسل هذه العلامات وتناسقها يفضي بنا عادة إلى تحليل النصّ، كما أنّ طريقة توالي الجمل المترابطة يحدّد إيقاع القراءة؛ وبذلك يدخل في تشكيل النصّ تقسيمه إلى فقرات وفصول وصفحات. وإنّ اختيار الكاتب لجنس أدبي ما أو لاتجاه فني هو اختيار للغة التبليغ التي ينوي الاتّصال بقارئه من خلالها. ويبدو مهمّاً هنا جميع التفاصيل المتعلّقة بتوزيع هذه المتواليات وترتيبها وطولها، والروابط المعنويّة والشكليّة فيما بينها، وهيئة تركيبها، وهذا المقوّم يمكن أن نطلق عليه شكل النصّ. وقد تتبّع اللساني المغربي (محمد الماكري) أثر هذا الشكل في بناء النصّ وتحليله في دراسته (الشكل والخطاب)[5]. والنصّ "شكلٌ مغلقٌ له بداية ونهاية"[6]؛ فهو يعالج موضوعاً كاملاً ولكنّه

---

(1) الأزهر الزناد، نسيج النصّ، ص١٤.

(2) نفسه، ص١٥.

(3) Halliday (M.A.K) & Ruqaiya Hasan, Language Context and text, aspects of language in social semiotic prespective, 1989, p. 37.

(4) OX - R- Fowler, Linguistics and the novel, First edition, London, 1985, P.45.

(5) محمّد الماكري، الشكل والخطاب: مدخل لتحليل ظاهراتي، ط١، ١٩٩١، المركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء.

(6) عبد الملك مرتاض، النصّ الأدبي من أين وإلى إين، ص١٨.

يمتدّ في رؤى القارئ والناقد شرحاً أو تعليقاً أو تأويلاً. وتماسك النصّ وترابطه عنصر آخر من العناصر البارزة التي يقوم عليها مفهوم النصّ، ويقصد بهما توافر مجموعة من العلاقات التي تساعد على ربط أجزاء النصّ بعضها ببعض "لتحيل الجمل المتعدّدة إلى ما يشبه أن يكون جملة واحدة متّصلة الأقسام"[1]. وتختلف اللّغات بشكل ملحوظ في درجة السماح لمستخدميها أو حملهم على ربط وحدات النصّ مع بعضها بعضاً في سلسلة عن طريق الروابط النحويّة؛ كالضمائر، وأدوات العطف، والروابط الزمنيّة، والدلاليّة كالترتيب المنطقي، والتكرار، والحذف.

ومن المقوّمات الأخرى الانسجام أو الاتّساق بين النص والسياقات التي يظهر فيها؛ فالنصّ يتّسق مع سياق ثقافي عام يتّصل بالتاريخ والقانون والدين والأدب؛ ولذلك تقترح كريستيفا دراسة الأشكال النصيّة ضمن منظومة الثقافة والتاريخ التي يتشكّل منها وفيها النص[2]، كما ينسجم مع سياق خاص يمكن أن نطلق عليه (المقام) يشتمل على مجموعة الظروف والملابسات التي اكتنفت كتابة النص. وتقاس درجة التماسك والترابط في ذلك النصّ بالنسبة إلى السياق الذي يظهر فيه.[3] وعنصر الانسجام من العناصر الرئيسة التي يشير إليها (فان ديك) (Van DIJk) في دراسته للعلاقة بين النص والسياق[4]. كما يفترض لاينز نوعاً من الانسجام أسماه الانسجام الدلالي، ويقصد به أن تكون المكوّنات الدلاليّة والعناصر المعجميّة في النصّ مولّدة ضمن توافق نحوي معيّن[5]. ويستعمل باحثون آخرون مصطلح التشاكل بدلاً من مصطلح الانسجام، ويدرسون صوراً مختلفة له، وقد استفاد د. محمد مفتاح[6] من مفهوم التشاكل لدى اللّغويين وحلّل في ضوئه قصيدة كاملة، توقف فيها عند التشاكل الصوتي والتركيبي والدلالي وربط ذلك كلّه بالقواعد التداوليّة.

---

(1) Cristtal. D., A dictionary of Linguistics and Phonetics (Text).

(2) جوليا كريستيفا، علم النصّ، ترجمة فريد الزاهي، ١٩٩٧، ص: ٢٩.

(3) جون لاينز، اللغة والمعنى والسياق، ص٢٢١

(4) Van DIJk, T.A. (1977) Text and context, London, P.16.

(5) جون لاينز، علم الدلالة، ترجمة مجيد عبد الحليم الماشطة، ص١١٩.

(6) محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري، ص٢٠.

ويلحّ الذين درسوا (نحو النصّ) على الفعل التواصلي للنصّ ومنهم (بيوجراند ودرسلر)، فالتواصل يربط بين خصائص النصّ المختلفة والقارئ[١]، بل إنّ آخرين يتجاوزون ذلك إلى القول إنّ "النصّ عمليّة يخلقها القارئ"[٢]. ويتحقّق هذا التواصل من خلال انسجام النصّ مع سياقه، وانسجام عناصره المختلفة. ويشرح (رولان بارت) آليّة هذا التواصل بقوله: "إنّ النصّ هو ذلك الشيء الذي يتحقّق لدى القارئ من تفاعله بالعلامات التي يتألّف منها المنطوق الإبداعي"[٣]؛ وبذا يصبح القارئ جزءاً لا يتجزّأ من تعريف النصّ عند بارت. والباحثون في محاولتهم خلق نظريّة تطبيقية لعملية التوصيل، يتّجهون إلى منهج تحليلي للرسالة اللّغوية طبقاً للعناصر الدلاليّة والجماليّة للغتها. والأساس اللّغوي لهذا التحليل عن جاكبسون أنّ كلّ حدث لغوي يتضّمن رسالة وأربعة عناصر مرتبطة بها هي: المرسِل، والمتلّقي، ومحتوى الرسالة، والكود أو الشيفرة المستعملة فيها[٤]، ومن المألوف أن تعمل هذه العناصر متماسكة متآلفة، ويتمّ الاتّصال بين الناس من خلال نظام العلامات الذي يتّفق عليه بين أفراد البيئة اللّغوية المحدّدة. أمّا المقوّم الأخير الذي يشيرون إليه فهو (جامع النص)، وهو من مصطلحات الناقد جيرار جينت[٥] (G. Genette). ويفترض كثير من الدارسين وجود بنية نصيّة كبرى يغترف الكاتب منها، ويعود إليها، ويتصارع معها، ففي لا وعيه تتمثّل هذه البنية الكبرى (جامع النصّ) مزيجاً من آلاف النصوص المتداخلة، ويوظفّها الكاتب في سعيه إلى إنتاج الدلالة وفقاً لعلاقة معيّنة بين كاتب وقارئ في إطار ثقافي واجتماعي محدّد[٦]. ويطلق عيها بعض

---

(١) Beaugrand & Dressler, An Introduction to text linguistics, London, 1984, p.33.

(٢) سعيد يقطين، انفتاح النصّ الروائي، ص١٧.

(٣) رولان بارت، درس السيميولوجيا، ص٣٧.

(٤) صلاح فضل، نظرية البنائيّة في النقد الأدبي، ١٩٨٧، ص٣٨٣.

(٥) جيرار جينت، مدخل لجامع النصّ، ترجمة عبد الرحمن أيوب، ص٩٢.

(٦) اندريه جاك ديشين، استيعاب النصوص وتأليفها، ترجمة هيثم لمع، ص١٥.